

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

عرفت حضارة الإسلام ، فى مسيرتها التى تعبر بها مشارف القرن الحادى والعشرين بعد مرور خمسة عشر قرناً منذ أن شع نور الوحي الإلهى على البشرية ، مراحل إشراق وفترات إشعاع ، كما عرفت التقلص مكتفية بالدفاع عن معاقلها ، وما ذلك نتيجة لتراجع الإسلام وإنما لتراجع المسلمين . من فترات الإشراق والإشعاع تحسب ، وفى الصدارة الفترة الأندلسية ، ثمانية قرون تقريباً من العطاء وعبر مختلف دروب المعرفة تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتأصيلاً لمبادئ الإسلام ، وفتحتاً فكرياً فى ميادين الفلسفة والعلوم طبيعة أو إنسانية بما فى ذلك الدراسات التاريخية والجغرافية ، فضلاً عن الآداب والفنون ، الأندلس تغذى وغذى حضارة الإسلام ليغذى حضارة الآخرين ، وبخاصة حضارة الغرب فى إرهاباتها الأولى .

قدّم الأندلس أو الفردوس المفقود ما قدّم رغم معاناته فى مختلف مراحلها من هبوب رياح الفرقة والفتن والمكائد والدسائس والمؤامرات ، وتبادل الطعنات من داخل وخارج الدار .

الأندلس تعرّف عليه المؤرخون وعرفوا به معاصرين ولاحقين ، مما شكل منجماً غنياً بالوقائع والأحداث ، وما زلنا حتى يومنا هذا نلاحظ بين الفينة والأخرى إسهاماً يتمثل فى اكتشاف وثيقة أو مخطوط يعنى هذه الفترة أو تلك من تاريخ الأندلس ، وبرزت أعمال جادة حاولت أن تستوعب الأندلس استيعاباً يليق بما قدّم للبشرية من عطاء ، نشيد بها سواء ما قدّمه المتخصصون فى الأندلسيات بالشرق والمغرب ، أو ما أسهم به النزهاء من المستشرقين أسبانيين أو غيرهم ، ماضين أو معاصرين .

ومع هذا كنا نتطلع دائماً لحوار حول هذا الأندلس ، حوار يعنى الحاضر فى الماضى كما يعنى الماضى فى الحاضر ، وكان تطلعننا وطموحننا أن يتم هذا الحوار من خلال عطاء مفكرنا الكبير الذى يحظى بسمعة عالمية وإسلامية موضع التقدير والإعزاز ، وعلى حد سواء ، هذا المفكر الذى غذى حضارة الغرب بإسهاماته الجادة كما غذى حضارة الإسلام ، فهو بحق رائد من رواد الحضارتين ، نشأ كما هو معروف فى قرية متواضعة من قرى صعيد مصر ، وتربى تربية دينية فى طفولته لتستمر أزهرية (نسبة إلى الأزهر) فى شبابه ، ليمتطى ركاب حضارة الغرب ، وليصبح فى النهاية من أبرز مفكرىها المعاصرين وبخاصة ما يعنى النظريات الوضعية : سانسيمونية وكونتية وماركسية وتطورية ... إلى غير ذلك من إفرزات حضارة الغرب والتى فى جوفها تبلورت علوم الإنسان المعاصرة والرئيسية منها كعلم الاجتماع (السوسولوجيا) وعلم النفس (السيكولوجيا) والأنتروبولوجيا الاجتماعية .

إنه رشدى فكّار الذى عُرفَ بسيرته فى أكثر من كتاب صيغ عنه ، فمن تحصيل الحاصل أن نعود إلى هذه السيرة التى خطت معالمها الرئيسية فيما وضعه الكاتب الإسلامى المعروف خميس البكرى وذلك فى مجلدين عن « رشدى فكّار ومشاكل العصر » ، « ورشدى فكّار وقضايا تراث المسلمين » ، أو المجلد الذى وضعه السيد أبو دومة عن مفكرنا بعنوان : « رشدى فكّار ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب » ، فضلاً عن الدراسات الأخرى التى عاجلت فترات من حياته أو مراحل فكرية معينة من إنتاجه .

لهذا نكتفى بالإشارة هنا إلى أحدث ما أنتجه مؤخراً وظهر له فى المكتبة العربية كمؤلفه الذى يحمل عنوان « عن الحوار الحضارى فى بُعد واحد : الأنتوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف فى مدخلهما برحالة الإسلام » (منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٨) ، وما ظهر له فى المكتبة العالمية ونعنى بذلك نظريته الحوارية فى الاجتماع العربى

الإسلامي ، ثلاث مجلدات بالعربية مع استخلاص لكل مجلد بالإنجليزية
والفرنسية ، عن دار النشر العالمية، جيتير بباريس . ١٩٩٠ .

وكان علينا أن نتصيد الوقت الملائم الذي تسمح به المشاغل المتعددة
والالتزامات المتنوعة لهذا المفكر الكبير الذي بات العثور على جلسات متعددة
معه يجرى من خلالها الحوار ، قضية تحتاج لمزيد من التحضير والمواءمة التي
لا تزعج مفكرنا ولا تؤثر في حضوره هنا وهناك عبر المحاضرات الجامعية
واللقاءات العلمية والمؤتمرات العالمية .

وقد كان ، فمن المعروف أن لمريدي الدكتور رشدي فكّار ومحبيه مكانة
متميزة ورجاءً مقبولاً يتمشى وما أخذه على عاتقه من رسالة ليبلغها لجيله
وما يتلوه جيلاً بعد جيل ، وتقبّل مفكرنا هذا الرجاء ، فكانت الحلقة الأولى عن
بداية تعارفه مع الأندلس ، ثم تلتها حلقات عن عصر الولاة وعصر الإمارة
والخلافة ، ثم التراجع ودويلات الطوائف رغم الإنقاذ المرابطي والموحدي ، وما كان
من مصير غرناطة الحبسية ، وقد أفرد لهذا الحوار سبع حلقات متتالية تتميز
بأسلوب مفكرنا التلقائي ومصداقيته وتسلسل الوقائع والأحداث دونما مغالاة
أو إنفعال أو تغافل أو إغفال .

وفى حلقات أربع كان تقنين مفكرنا الهاديء الرصين للفردوس المفقود عبر
جولة في بؤر الضياع بين الخاسرين والباكائين والمتباكين ، وجولة في قلاع المجد ،
قدم لنا فيها مسيرة الأبطال المجاهدين منذ بداية الفتح وعبر عصر الولاة والإمارة
والخلافة ، وحتى فى فترات التأزم والتراجع والانهباء ، فهذه الفترات الأخيرة
مع هذا حفلت بالأبطال المجاهدين مرابطين وموحدين ومرينيين وصامدين
من جسدوا الإصرار على إيقاف تنفيذ مسلسل الضياع أو تأخيرها لعدة سنين ،
وما بقاء غرناطة حبسية رابضة فوق صخرتها متجاوزة القرنين من الزمان
إلا مثلاً لهذا الصمود وهذا الإصرار كرموز تركت بصماتها فى صفحات
التاريخ لهؤلاء المجاهدين الأبطال .

كما قدّم لنا مسيرة أخرى هي مسيرة الاجتهاد والإبداع الأندلسي ، علماء مفسرين ومحدّثين وفقهاء ولغويين ، سهرروا وبغيره على أصول الإسلام وتنقيتها من كل شائبة ، كما سهرروا على تبليغها وتحمل أمانتها من جيل إلى جيل ، وذلك جنباً إلى جنب مع مجتهدين ومبدعين آخرين تربويين وأطباء ورياضيين وفلكيين وفلاسفة ومتصوفة ، وأدباء وشعراء ورُحالة ومؤرخين وجغرافيين ... وغيرهم ممن أسهموا في الارتقاء بالإنسان وبخيراته وثوراته ، فضلاً عما عمر به الأندلس من فنّانين أشرقوا في دروب الفن المختلفة ، فكان هذا الإيقاع الحضاري المتكامل لأندلس حمل بحق راية التسامى بالإنسان ، وترك آثاراً لا تمحى لا في حضارة الإسلام فحسب - كمرحلة من أعرق مراحلها - بل في حضارات الآخرين وبخاصة حضارة الغرب التي لا يمكن أن تُعزل في جذورها وإرهاصاتها الأولى عن المد الأندلسي للعقل العربي المسلم المبدع .

وجاء استخلاص الحوار حول الحاضر في الماضي - ولمَ لا ؟ - حول الماضي في الحاضر ، ليؤكد لنا أن الأندلس ، هذا الفردوس المفقود سيظل قابلاً في ذاكرة الأجيال وفي ذاكرة الحضارات والثقافات نتلمسه عبر عطائه وإشراقه وإشعاعه كمفخرة من مفاخر حضارتنا التليدة ، ونتخذة كعبرة في الأزمات والنكسات لتتحاشى التزحلق والوقوع في انزلاق بؤر الضياع ، مرسخين لقلاع المجد بفضل استذكارها ومراجعتها واستعادة رموزها كمعالم نستنير بها في مستقبل العصور .

هذا .. ونتوجه بالشكر لكل من ساهم وسهّل لنا مهمة إنجاز هذا الحوار الهام مع مفكرنا العالمي الكبير الدكتور رشدي فكّار ، وبخاصة الباحثة المغربية محمد العلمي والى - صاحب المكتبة الجامعية بالرباط - والدكتور جمال عبد الكريم الأستاذ بجامعة القاهرة ، الذي تفضل وراجع هذا الكتاب بعد مراجعة البروفات الأخيرة في المطبعة ، تحاشياً للأخطاء المطبعية في التواريخ والأسماء - والكتابة الخاصة للدكتور رشدي فكّار ، وكل الإخوة الأعزاء ممن عاونونا في مصر والمغرب .

سيد أبو دومة

* * *